الفصل الأول

نساء مؤمنات

obeikandl.com

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

آسيا بنت مزاحم

هذه المرأة ذكرها القرآن في معرض تذكير المؤمنين بشخصية عظيمة لم يُغرها المال، ولم يُنْسِها السلطانُ حقيقة أمرها، ولم تخدعها الحياة الدنيا، برغم أن الثراء كان تحت قدميها، والعز بين يديها، بل مملكة بأسرها رهن إشارتها، لأنها كانت زوجة «فرعون ملك مصر»، والحق سبحانه وتعالى عصمها منه بعد أن دخلت في دين الله، وعرفت الحق فاتَّبَعَتْهُ، لهذا قال سيدنا رسول الله ﷺ عنها- في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما: «**كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد**».

ونحن نعلم أن فرعون كان يقوم بذبح الذكور الذين يولدون من بني إسرائيل لأنه كان رأى رؤية فُسِّرت له بأن زوال ملكه سيكون على يد واحد من بني إسرائيل، وشاء الله أن يولد سيدنا موسى في هذه الفترة العصيبة، لكن الله ألهم أُمَّه أن تصنع له صندوقاً وتضعه فيه وترمي به في البحر، وتُرسل أخته تتبع أثر الصندوق، فعلمت أن الصندوق وصل إلى دار فرعون، وكادت أم موسى أن تصرخ وتولول، لكن الله ثبّت يقينها وقوّي عزيمتها فصبرت، وأرسلت بأخت موسى مرة أخرى إلى دار فرعون وهناك رأت «آسية» وهي تعلن بصوت عالٍ: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[1].

هذا هو صوت العقل والاتزان، وقد استجاب فرعون لها لأنه يحبها لرجاحة

(١) سورة القصص، الآية ٩.

عقلها وسلامة تفكيرها ورأيها الصائب، فنزل فرعون وحاشيته على رأيها، وأرسل في طلب المراضع لهذا الطفل، لكن موسى رفض كل النساء، فقالت أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾؟[1] ورضيت زوجة فرعون بهذا الرأي، وذهبت أخته فجاءت بأمها، وعندما رآها موسى الطفل الصغير أقبل عليها، وعندما أرضعته شرب لبنها وسكت بعد طول بكاء، فَرُدَّ موسى إلى أمه التي بدأت تأخذ أجراً من بيت فرعون على قيامها بإرضاع طفلها، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾[2].

ومضت الأيام وكبر موسى بعد أحداث مرت به، وتنبأ بوحي الله الذي قال له: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾[3]. لكن فرعون لم يستجب، لأنه في زَعْمِ نفسِه إلٰهٌ، لكن زوجته العاقلة الرشيدة أسلمت مع موسى لله رب العالمين. وعرف فرعون بإسلام زوجته، فأقسم بألوهيته لَيُذيقنَّها العذاب الأليم. وبرّ بقسمه، وجاءها برجال غلاظ شداد ربطوها في أربعة أوتاد، ومنعوا عنها الطعام والشراب، وتولوا تعذيبها مرة بالعصا، وأخرى بالكرباج، وثالثة بكيِّ أجزائها بقطع من الحديد المحمَّى في النار، وكانت المسكينة تقول: «إلٰهي.. كيف أجوع وأنا أَمَتُكَ وأنت الغني الرزاق؟! إلٰهي.. كيف أظمأ وأنت الذي تسوق الماء إلى الأرض الجُرُز؟! إلٰهي.. كيف أُعَذَّبُ وأنا أَمَتُكَ، ناصيتي بيدك لا رادَّ لقضائك، ولا مُعقب لحكمك، يكفيني أن قلبي معك وروحي بين يديك!! ثم تطلب من ربها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾[4].

وتأمل أيها القارئ في هذا الدعاء وهي تقول: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾، فقد قدمت ربها على الجنة، وهي بهذا تختار الجار قبل الدار، وتختار

---

(١) سورة القصص، الآية ١٢.
(٢) سورة القصص، الآية ١٣.
(٣) سورة النازعات، الآيات ١٧ ـ ١٩.
(٤) سورة التحريم، الآية ١١.

الرفيق قبل الطريق، وأَنْعِم بها من صحبة. لذلك فازت هذه المرأة بثواب كبير وأجر عظيم، وذكرت في القرآن الكريم في سورة التحريم بأن ضَرَبَ الله بها مثلاً للذين آمنوا.

إن هذه المرأة المؤمنة نموذج حَيٌّ أمام المسلمات يتعلمن منها الصبر، ويتخذنها رائدة قائدة ليكون لهن ما لها من حسن الختام، والذكر الطيب بعد الموت. فالذكر للإنسان عُمْر ثانٍ... فعلى كل فتاة أن تدرس شخصية هذه المرأة التي عُذِّبت وصبرت، لأنها آمنت بالله وأسلمت مع موسى، ومن هنا هان عليها كل شيء: المال، والسلطان، والعز، والجاه. إنها تركت كل ذلك في سبيل العقيدة الإيمانية التي ندعو كل امرأة أن تتمسك بها، وتلوذ بعقيدتها، لأن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملاً. وسُجِّلت هذه المرأة مع الخالدين الأبرار في جنات النعيم... فسلام الله عليك ورحمته وبركاته إلى يوم نلقاك فيه في جنة الخُلْد التي وُعد بها المتقون.

obeikandl.com

أم موسى وابنتها

من فضليات النساء، ذكرها القرآن في معرض التنويه بِقَدْرِها وقوة عزيمتها وتحلِّيها بالصبر... «أم موسى»... هذه المرأة التي عاشت في زمن فرعون الذي عَلا في الأرض وجعل أهلها شِيَعاً، وقد استضعف طائفة من شعبه، واتخذ منهجاً لم يتخذه أحد من قبله ولا من بعده، وسلك طريقاً لم يسلكه أحد في التاريخ إلاَّ هو... وذلك لأن المرأة كانت إذا ولدت في أيامه بنتاً استبقاها للمتعة والخدمة وإنْ ولدت ذكراً يذبحه... والغرض من ذلك أن يقطع نسل بني إسرائيل... ذلك لأن الكُهَّان قالوا له إن هلاكه على يد ذكر من بني إسرائيل، فبدأ بتذبيح الصبيان حتى لا تقوم لهم قائمة... وفي قول الله سبحانه عن فرعون: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾[1] وَصْف جامع لمساوئ فرعون، لأنه كيان فاسد لا يصدر عنه إلاَّ ما هو فاسد. لكن الحق سبحانه وتعالى اقتضت مشيئته أن يَمنَّ على بني إسرائيل، وأن ينجيهم من هذا الهلاك المدمر، وأن يجعل منهم أئمة يهدون إلى الحق، ثم يجعلهم الوارثين في مشارق الأرض ومغاربها للمُلك والسلطان ما داموا على الحق وإليه يدعون.

والحق سبحانه وتعالى يكشف لنا عن الأسباب التي يقيمها لتمضي إرادته وتتحقق مشيئته. ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى في غنى عن هذه الأسباب التي تحقق المسببات، لأنه إذا أراد شيئاً قال: «**كن**.. **فيكون**»، لكن الحق سبحانه وتعالى يدربنا ويعلمنا أنه جعل لكل شيء سبباً، لنتخذ نحن الأسباب حتى نصل إلى المسببات بهدوء وأمان.. والحق سبحانه في صورة القصص يبين لنا أن السبب الأول الذي سيكون به تدمير عرش فرعون هو «ميلاد موسى»، وكيف يولد ذكر

---

(١) سورة القصص، الآية ٤.

وينجو من بطش فرعون، لأن عيون جنوده تتطلع إلى الحوامل وترقبها من كل مكان، حتى إذا وضعت مولوداً ذكراً يُذبح في حجر أمه وهي في حال نفاسها، ولا تشفع عندئذٍ التوسلات ولا العويل ولا البكاء، لأن جنود فرعون لا يخالفون التعليمات، وليست لديهم عواطف نبيلة ولا مشاعر طيبة، ولا أحاسيس يفيض منها خير، فقلوبهم كالحجارة أو أشد.

ولكن تمضي مشيئة الله... أوحى الله إلى «أُم موسى» عندما ولدته أن أرضعيه، والوحي إلى أم موسى إمَّا أن يكون وحياً على حقيقته، أي جاءها مَلَكٌ فتمثل لها بشراً فأفهمها ما تعمل وشرح لها الأسلوب الذي تقوم بأدائه، أو يكون الوحي إلهاماً من الله لها وهذا هو الذي نميل إليه، فوقع في تفكير أم موسى أن تصنع ما صنعت، لأن وليدها مُهَدَّد بالذبح بين يديها، ففراراً من هذا تفعل ما تفعل، فإن نُجِّيَ فهذا ما ترجوه، وإن هلك في البحر فموته غرقاً وبعيداً عنها أهون عليها من أن يُذبح بين يديها.

وقامت أم موسى وصنعت الصندوق وأحكمت صناعته، وقبل أن تضع الطفل فيه أرضعته، ليشمَّ الطفل رائحة صدرها، ويتذوق طعم لبنها، فلا يشم صدرَ غيرها، ولا يقبل لبناً غير لبنها، وتلك مشيئة الله الذي أوحى إلى «أم موسى» أن ترضعه قبل أن تلقيه في البحر، ثم وضعته في الصندوق ووضعته في البحر، وبينما كانت يدُها تمتد بالصندوق إلى البحر أوحى الله إليها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾[1]. وكانت أم موسى لا تدري، فربما يلتقط هذا الصندوق أحد الصيادين أو الفلاحين فيجد هذا الطفل فيتخذه ابناً أو عبداً، وربما وقع هذا الصندوق في يد جنود فرعون فذبحوا الطفل بعيداً عن عينيها.. وربما غرق... لقد انتابتها خواطر شتى، لكنَّ وحي الله يثبت قلبها بعد أن نبهها بقوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾، وزاد على ذلك قوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ أي يعود الوليد إلى الأم التي تعتصرها الأحزان... نعم... سيعود... بل وزيادة في التكريم لأم موسى ووليدها بشَّرها بأنه سيكون نبياً، فقال: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾[2].

---

(١) سورة القصص، الآية ٧.

(٢) انظر الآية السابعة من صورة القصص.

إن الأسباب تتحرك من غاية إلى غاية، فموسى الوليد ينتقل من يد أمه الحانية إلى النهر بأمواجه العاتية ومصيره المجهول، وما هي إلا لحظات والأم كادت تُجنّ، حيث أصبح فؤادها فارغاً، فقد ضاع الولد من يدها، وأصبحت مشاعرها وأحاسيسها معطلة بذهابه عنها، لأن وليدها أخذ معه العواطف، وجلست هي وحيدة مع دموعها، وكأن وليدها بين يديها تناغيه وتلاحظه في حركته وسكونه، ويقظته ونومه، ثم تمد يدها على صدرها تريد أن ترضع وليدها، ثم تستيقظ من غفلتها فإذا بجوارحها كلها وكأنها أدوات معطلة لا تعمل، وأصبح قلبُها ـ وهو مركز العواطف والمشاعر ـ كياناً فارغاً، وأصبحت وبها من القلق والأسي واللوعة ما لو وُضع على جبلٍ لتفتت... وكادت أن تصرخ وتنادي في الناس إن هذا الوليد الذي يركب موج البحر في صندوق هو ولدي، وتندب بصوت عالٍ وتستعطف الناس ليجعلوها تُلقي نظرة الوداع عل وليدها الذي تتقاذفه أمواج الرياح، وصدق الله العظيم إذ يقول مصوِّراً هذا الحدث: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾[1].

إن الحق سبحانه وتعالى لا يتخلي عن الإنسان الذي يطلب عونه ويقف على عتبات قدسه وفي محراب عبادته يدعوه سبحانه، فهو القائل: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2]. وأم موسى كانت تعاني من آلام نفسية لا يستطيع إنسان أن يصفها، لكن الله رَبَطَ على قلبها وألهمها بأن وليدها في رعاية الله وفي ضمانه، فلا تخافي، وثِقي بأن الله القادر ستتحقق مشيئته... لذلك وقفت أُمُّ موسى وبدأت تبحث عن أسلوب آخر بدل الفزع والجزع لتَحَقُّق مشيئة الله، فألهمها بأن تتخذ سبباً من الأسباب التي ستعيد الوليد إليها... وكانت أخت موسى تجلس بجوارها، فقالت لها أمها: يا بُنيتي، إن الصندوق وقع في يد جند فرعون وقد أخذوه إلى القصر، وهم الآن يكشفون عنه، وأريد أن أذهب وأصرخ معلنة أن هذا ولدي... إنني أريد أن أطلق من نفسي هذا الهم الثقيل والعبء الذي على عاتقي. فألقت أخت موسى بنظرة

(١) سورة القصص، الآية ١٠.
(٢) سورة غافر، الآية ٦٠.

حانية إلى أمها وهي في هذه الحالة.. لكنَّ الله تعالى ثَبَّتَ أُمَّ موسى وألهمها الصبر، لأنها مؤمنة بالله الواحد.. فاستدارت أم موسى إلى ابنتها وقالت: اذهبي أنتِ فتعرَّفي الأخبار وكوني حذرة لا تفصحي عن الوليد... ومن المعلوم أن الإنسان إذا كانت له حاجة وأرسل شخصاً ليقضيها له فيبعث بشخص عنده حكمة ولباقة وبُعْد نظر، وكان هذا ما حدث من أم موسى.

فذهبت أخت موسى تتعرَّف الأخبار، فرأت جند فرعون يحملون الصندوق، ثم يُفْتَحُ الصندوق، وتتحرك الأيدي لترفع الوليد منه، وإذا بأحد الجند يصيح: «إنه إسرائيلي!!»، وإذا بالأصوات كلها ترتفع: «إذاً فيُذْبَح كما ذُبح أبناء جنسه من قبل ويُذبحون من بعد». لكنَّ مشيئة الله تغلب مشيئة البشر مهما كان عددهم وقوتهم، فتتحرك امرأة فرعون من داخل القصر وتأتي إلى مكان الجند وترى هذا الوليد، وتتحرك فيها غريزة الأمومة، وتصرخ في أعماقها عواطف الأم نحو هذا الطفل وكأنه وُلِدَ منها هي، وكأنها قد ولدته لساعتها، فتتشبث به وتحتضنه، وفرعون يصيح في الجند: اقتلوه!! لكن زوجته تصرخ بشدة: ولدي.. كبدي.. قُرَّة عيني: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1]، ثم تتجه إلى فرعون الذي يتطلع إليها وهو في غاية العجب والدهشة... فتتودد إليه وتستعطفه وتناغيه وتقول له: زوجي الحبيب، إن ولداً واحداً لا يُقدم ولا يؤخر، وأنا حُرِمْتُ الولد، فَهَبْهُ لي ليكون كولدي، يرعى أمري، ويسعدني بطلعته. وتقع هذه الكلمات من قلب فرعون الذي يطلب رضاها موقع القبول، فيترك لها الوليد لتُرضي به أنوثتها، وتشبع به جوع أُمومتها.

كانت أخت موسى تتسمع إلى ذلك، وتلتقط الأخبار من هنا وهناك... لقد كانت كياناً قويًّا من الحَذَر والحَيْطة، بحيث كانت تقرأ الحركات التي يأتي بها الجند، وترى الإشارات الصادرة من فرعون، وتسمع صوت امرأة فرعون، وكانت على مقربة من مواقع الأحداث، لأن كل من في القصر مشغول بهذا الموقف الطارئ، فلم يشعروا بأخت موسى التي كانت تقف في قلب الأحداث، ﴿فَبَصُرَتْ

(١) سورة القصص، الآية ٩.

بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾[1]. إن هذه الكلمات نابضة بأسرار كثيرة من الأحداث، خاصة بعد أن قال فرعون كلمته بالإبقاء على هذا الوليد إرضاءً لزوجته التي يكنّ لها الحب ويتمني رضاها...

لقد أصبح الوليد «موسى» في بيت فرعون، وكَتَبَ الله له النجاة من ذَبْح محقق. واحتضنته زوجة فرعون، وصدرت الأوامر بالبحث عن مُرْضِعة، وعلى الفور تحركت أجهزة الدولة كلها لتبحث عن مرضع لهذا الوليد الذي أصبح وقد اتخذه فرعون «ابناً له» والدولة كلها في خدمة فرعون وطلبه، لذلك جاءت المراضع من كل فج عميق، وكلما وضعته امرأة على صدرها نَفَرَ منها وصرخ، وكأنه يستغيث ويطلب النجدة. ووقف فرعون وزوجته وهما يتعجبان، المراضع تقف طوابير والوليد لا يُقبِل على أي واحدة، وهنا تتقدم أخت موسى وتقول في حياء: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾[2]؟ ولا يتردد فرعون وقومه في قبول هذا العرض، وتسرع أخت موسى إلى أمها، فتحضر الأم مسرعة في لهفة وشغف، وما إن وضعت الوليد على صدرها حتى أقبل على ثديها، حتى إذا ما شبع بدأ يهدأ ويبتسم، وقد اطمأن قلب أم موسى لأن الله سبحانه حرّم عليه المراضع من قبل، وكان قد ألهمها أن ترضعه قبل أن تُلقي به في اليم.. ويعود الطفل إلى أمه، ويتحقق وعد الله تعالى لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾[3]، وتصبح من حاشية فرعون، لأنها المرضع الوحيدة لهذا الوليد، وبهذا نعلم جميعاً أن وعد الله حق، وهو الذي يُسبب الأسباب، لنصل من ورائها إلى الغاية الكبري التي تحققت على يد موسى، كما حدد القرآن ذلك بقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾[4].

وتنتهي الأحداث الأولي عند عودة الطفل إلى أمه لنعرف أن وعد الله حق وإنْ

(١) سورة القصص، الآية ١١.
(٢) سورة القصص، الآية ١٢.
(٣) سورة القصص، الآية ٧.
(٤) سورة القصص، الآية ٨.

كان أكثر الناس لا يعلمون. . ولكن الحقائق والشواهد والأحداث تؤكد ذلك.

وقد سقنا قصة موسى وأخته وامرأة فرعون لنقول لكل امرأة: إن الله سبحانه لم يَتَخَلَّ عن المرأة قط، ولم يأمر الرجال بإهانتها كما يزعم البعض، ومن هذه القصة نستخلص ما يأتي:

(١) إن المرأة إذا أطاعت ربها وأخلصت في عبوديتها نَجَّاها الله من كل سوء، وكان عوناً لها، ومساعداً لها في التخلص من كل ما يضرها إذا حافظت على نفسها، وأدَّت حق الله بصدق وأمانة ويقين.

(٢) على المرأة أن تتحلي بالصبر، وأن تضبط عواطفها ولا تجزع، وإنما تطلب من الله العون وهي واثقة من أنه سبحانه وتعالى سوف يمدها بمدده، وسوف يكتب لها النجاة من المهالك.

(٣) إذا أرسلت المرأة أحداً من الناس لحل مشكلة في أي مكان، عليها أن تتخير من يتَّسم بالحكمة وبُعْد النظر، والصدق، والانضباط والأمانة، ليكون عنده الكفاءة في حل المشكلة بيُسْرٍ وسهولة.

فإلى أمهاتنا وأخواتنا نقدم قصة أم موسى لنأخذ منها الدروس المستفادة، ونتعلم ما فيه خيرنا وسعادتنا، ونستفيد من دور «أخت موسى» في اللباقة والفطنة وتقديم النصيحة، لنصل إلى ما نريد.

بنْتا شعيب

أباح الإسلام للمرأة أن تعمل في العمل الذي يناسبها، والتي تقدر عليه. وإذا كان الإسلام قد ترك للمرأة أن تتخير مجال عملها فذلك من باب الحرية التي مُنِحت لها وهي حرية مضبوطة على القيم الأخلاقية العالية، والآداب الاجتماعية الفاضلة، لأن الإسلام ـ وقد أعطاها ذلك ـ نبهها على أن رسالتها في الحياة هي أن تكون أُمًّا، وأن أشرف ميدان لعملها هو المنزل. لكن إذا اقتضى الأمر أن تعمل في غير ذلك فلتتخير الميدان الذي يحفظ لها كرامتها ويصون شرفها، ثم عليها أن تتَّسم بالحياء، لأنه خُلُق نبيل، وصفة حميدة، وشعبة من شعب الإيمان. والوجه الكالح الصفيق هو الذي لا يعرف الحياء، ولا خير في وجه قل حياؤه.

من هنا قَصَّ الله سبحانه وتعالى علينا قصة بِنْتَي رجل صالح أقعده المرض عن السعي على أهل بيته، وكان لهذا الرجل بنتان، ولا بد أن تخرجا للعمل، لأن البيت يحتاج إلى رزق ليتعايش به مَنْ فيه. ومن المعلوم أن الرزق يحصل عليه الإنسان بالحركة والعمل، لأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، لهذا جاء قول الله سبحانه يعملنا هذا الأسلوب في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾[1]. والإنسان وهو يسعى على رزقه عليه أن يعتمد على الله وأن يتوكل عليه، وأن يثق في معونة الله له موقناً أن السماء تجود بخيراتها للعاملين الجادين المخلصين الموقنين، لهذا يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]. ويقول سبحانه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾[3].

---

(١) سورة الجمعة، الآية ١٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٩٦.

(٣) سورة الجن، الآية ١٦.

وشعيب هذا ـ كما جاء في القرآن الكريم ـ شيخٌ كبير، ورجل صالح. لقيه موسى عليه السلام عندما خرج من مصر خائفاً، لأن رجال فرعون كانوا يطاردونه ويبحثون عنه. وموسى رجل عنده ثقة في الله وذكر له سبحانه، لهذا كان يدعو ويردد: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾[1]. وحملته قدماه إلى أرض في أطراف الجزيرة العربية على خليج العقبة من جهة الشام مقابل تبوك. وكان وهو يسير من مصر إلى هذه الأرض على ذكرٍ دائم بالله تعالى، تارة يسبِّح ربه الذي خَلَق فسوَّى والذي قَدَّرَ فهَدَى. وتارة يحمده لما تفضَّل عليه من نعمة، فهو الذي خلقه وخلق له السمع والبصر والفؤاد، ومنحه الصحة والتوفيق، وتارة يستجير به ويعلن أنه عبدٌ ضعيف في حاجة إلى هدايته.

وكان موسى يمشي في طريق غربة موحشة، فهو في حيرة من أمره، لأنه لا يدري ما سوف يلقاه على طريقه من أحداث. ولم يكن يعرف أين يتجه! فهو في حاجة إلى هادٍ يهديه، ومعين يعينه، ومن يكون غير «الله»؟ يقول خليل الرحمٰن إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾[2]، وهنا هداه الله إلى طريق «مَدْيَن»، وموسى لم يكن له عِلْمٌ بهذه الطرق، لكنها عناية الله.

وإذا العنايةُ لاحَظَتْكَ عُيونُها نَمْ فالمخاوفُ كُلُّهُنَّ أمانُ

وعلى مقربة من مدينة «مَدْيَن» وجد موسى جماعات الرعاة يسوقون ما شيتهم إلى الماء، ولمح بعينه فتاتين قد انحازتا بماشيتهما من مكان بعيد! تَعَجَّب موسى لهذا المنظر، لأن الناسَ يتدافعون والفتاتين في مكانهما لا تتحركان. وبحكم المروءة التي يتحلى بها موسى، والشجاعة الأدبية، والنفس الكريمة، سألهما: لماذا لا تتقدمان وتسقيان ماشيتكما؟ قالتا: لا نستطيع، لأننا ليست لدينا القوة التي

---

(١) سورة القصص، الآية ٢١.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ٧٨ ـ ٨٢.

عند هؤلاء الرجال، فهم يعتمدون على قوتهم ونحن فتاتان ضعيفتان ولو كان معنا أبونا لسقي لنا، لكنه مُقْعَدٌ في البيت، فهو شيخ كبير في السن.

وهنا ظهرت الرجولة بأسمي معانيها، وتقدم موسى بهمَّة ونشاط وسَقَى لهما الماشية، ثم تركهما وانصرف. وكان موسى منضبطاً على القيم الأخلاقية، فلم يُعَلِّق نظره بهما. كما أنه لم يكن فضوليًّا، فلم يتبعهما، ولم يزد على ذلك، لأن بعض الناس إنْ صنعَ جميلاً أو معروفاً ـ خاصة مع النساء ـ تجده يتلكأ ويتمحَّك ويُبدي الكثير من الأسئلة، ويكثر من الإلحاح، وهذا هو الإنسان الفضولي الذي قال الله له ولأمثاله: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾[1]. وموسى هنا يعلم شبابنا درساً في الأدب وكيف يتحلي به الإنسان، ودرساً في الخُلُق النبيل: كيف تساعد غيرك في حدود إمكانياتك ولا تتطفل عليه، حتى ولو كنت محتاجاً منه.

وخذ من موسى قدوة، فهو غريب الدار والأوطان، لا يعرف أحداً في هذه البلاد، ولا زادَ معه، ولا مكان يأوي إليه، ومع ذلك فقد سَقَى لهما ثم انصرف إلى حال سبيله، وجلس تحت شجرة ليستظل بظلها، والظل نعمة يستحق الشكر عليه واهبه، لذلك رفع وجهه إلى السماء يحمد الله أن وفقه وأعانه إلى هذا الخير الذي أسداه إلى هاتين الفتاتين الضعيفتين، ثم سأل ربه أن يوفقه إلى مثل هذه الأعمال التي تجعله يقدم العون إلى غيره بلا مَنٍّ ولا أَذًى.

كانت الفتاتان قَدَّمتا لأبيهما صورة مما حدث من شاب غريب قدَّم إليهما المساعدة، وأنه جلس في ظل شجرة، وهو يتَّسم بالأدب. لأنه لم يرفع وجهه نحوهما، كما أنه لم يمعن النظر فيهما، وأنه يتسم بالقوة. ثم قالتا لأبيهما: ماذا نصنع مع هذا الغريب؟ هل نبعث إليه بطعام؟ أو ندعوه للمبيت في البيت؟ لكن من سياق القصة نرى أن الأمر ينتهي باستدعاء موسى لمقابلة الأب الصالح، فقد أرسل هذا الرجل إحدى ابنتيه لتستدعيه، وجاءته إحداهما تمشي على استحياء، أي إنها

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٣.

لم تمشِ على الأرض، وإنما تمشي على بساط ممدود في طريقها، هذا البساط هو الحياء، ويا لروعة التعبير الإلٰهي!

إن الدرس هنا للفتيات، لأن الحياء خُلُق أصيل في البنت، لأنها بهذا الحياء تغض بصرها، وتخفض صوتها، ولا تبدي زينتها إلاَّ بالقدر الذي يسمح لها به دينها، لهذا جاءت البنت إلى موسى وهي تمشي على استحياء، تتعثر قدماها، ويضطرب كيانها. إنها رسول أبيها إليه، والذي عَرَفَ موسى من قبل أنه شيخ كبير، فلو كان في استطاعته أن يذهب بنفسه إلى موسى لَذَهَبَ، لكن الكِبَر والعَجْز منعاه. لذلك جاءت البنت على استحياء وقالت لموسى: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[1] وليس المراد بالأجر هنا أن يكون أجراً ماديًّا، وإنما جزاءُ إحسانٍ بإحسان، ومعروف بمعروف.

وذهب موسى مع البنت. وكان من الأدب العالي الذي جعله لا يمعن النظر في الفتاة، ولا يحدّق فيها. ووصل موسى إلى الرجل، وكان بينهما حديث طويل، عرف الشيخ منه ما وقع لموسى من أحداث، والدافع الذي دَفَع به إلى المجيء هنا، فقال له الشيخ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٢٥﴾[2] فأنت هنا في مأمن، ولن تصل إليك يد فرعون. هنا تظهر الأنثى التي تطمع أن يكون موسى رجلها، وتنتظر الأيام ليجيء فيطرق بابها، وتحلم به في منامها، لأنها رأت الأخلاق الحسنة تجسدت فيه والشهامة والمروءة، لذلك تهمس في أذن أبيها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾[3]، أي أمسك به عندنا ولا تدعه يفلت من بين يديك وأن تصله بكَ بعملٍ، وكأنها تبرر ذلك، فتكشف لأبيها عن معدن هذا الرجل الذي يتزين بأجمل ما في الرجال «القوة والأمانة» فقالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ۝٢٦﴾[4]. والرجل الصالح يستشعر ما بنفس ابنته، لأنه أب، وهو بجانب ذلك حنون على أولاده، عطوف

(١) سورة القصص، الآية ٢٥.
(٢) سورة القصص، الآية ٢٥.
(٣) سورة القصص، الآية ٢٦.
(٤) سورة القصص، الآية ٢٧.

عليهم، لا يرى حرجاً في أن يتخير لابنته الرجل الذي تتمناه زوجاً لها ويردها حياؤها عن أن تعرض نفسها عليه.

وما أبرع حكمة هذا الرجل عندما وَجَّه الكلام لموسى وهو الغريب، وقد تم اللقاء بينهما منذ قليل، لكن معادن الرجال تظهر بسرعة، فالناس معادن كمعادن الذهب والفضة، لهذا قال الرجل الصالح لموسى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾[1]. إنه تدبير حكيم، لأن الرجل لم يضع موسى أمام حُكم لازم لا خيار له فيه، وإنما ترك له الخيار، لأنه لو حدَّد بنتاً من البنتين ستحزن التي لم تتزوج، وليس من الحكمة ولا من المصلحة أن تشتعل نار الفتنة والغيرة بين الفتاتين، كذلك ليس من الحكمة أن يصدم إرادة موسى ويصادر رأيه. فهو إنْ فرض عليه فتاة سينغص عليه حياته وتضطرب الأمور الزوجية، لأن هواه دائماً مع من يرغبها وحُرم منها. وهذا درس للآباء وعظة لهم ليأخذوا الحكمة من هذا الرجل الصالح وما فعله مع موسى.

وموسى عليه السلام كان من الحكمة والبراعة عند ردِّه على قول شعيب عندما عرض على موسى العمل وأن يتزوج بإحدى ابنتيه، فربما كانت الفتاتان تسمعان هذا الحوار، فلو أن موسى أعلن صراحة عن واحدة باسمها لحزنت الأخرى، فكان من الحكمة أن يقول لشعيب: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾[2] أي أنا موافق على هذا العقد.. أما فيما يختص بإحدى الابنتين التي سيقع عليها الاختيار فسيكون بيني وبينك، على أنك أنت الذي تقوم بمشاورة البنات وتكوِّن رأيك بعد المشورة، والله يوفِّق لي الخير فيما يشاء، وأترك لنفسي إرادة الاختيار، ليكون هناك الرضا النفسي، وحتى لا تكون هناك مشادة بين البنتين، لأنا جميعاً سنعيش في بيت واحد. وتكون النتيجة أن يتم الرضا والقبول، ويتزوج موسى ببنت من البنتين ويعيش أسعد حياة، لأن الله هو الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

---

(١) سورة القصص، الآية ٢٨.

ونخلص من القصة إلى ما يأتي:

(١) أن عمل البنت ليس بعيب، حتى ولو كان في الزراعة ورعي الأغنام، لأن العمل شرف وكرامة، وحفظ لماء الوجه.

(٢) ليس بعيب أن يختار الرجل لابنته الشخص المناسب، وأن يفاتحه في ذلك، بشرط أن يكون كُفئاً أميناً، لأن الرجل الأمين المتديِّن إنْ تزوج البنت وأحبها أكرمها، وإنْ كرهها وأبغضها لن يهينها.

(٣) إذا كانت الأسرة فيها أكثر من بنت وتقدم الشخص الكُفْء الشهم الشجاع ليخطب الوسطي فلا نصده ولا نغلق الباب دونه، بل نزوِّجه ولا نتعلل بأن تتزوج الكبري أولاً، ونأخذ هذا من قول الرجل الصالح: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾.

(٤) مطلوب من الرجال أن يكونوا أمناء على المرأة العاملة وأن يساعدوها ولا يضيِّقوا عليها، ولا تلتهمها عيونهم، وهذا من الأدب العالي الذي تبيِّنه هذه القصة.

(٥) المجتمع كله مسؤول عن رعاية المرأة، لأنها ضعيفة بحكم تكوينها، ومسؤولية المجتمع يؤديها فرد أو أفراد، ونأخذ هذا من فعل موسى مع البنتين.

(٦) مطلوب من المرأة أن تتَّسم بالحياء، وأن يكون خُلُقاً من أخلاقها.. وعليها أن تشكر مَنْ ساعَدَها وعاوَنَها بأي لون من ألوان المساعدة أو المعاونة، ونتعلم ذلك من قول الفتاة لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾، لأنها عرفت أن هذا الرجل غريب الدار، وقد صنع معروفاً فأرادت أن تكافئه، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان. فإن وجدت أنَّ مَنْ قدَّم إليها مساعدة «لكع» وفضولي ومقزِّز، فعليها أن تصده بعنف، وأن تُظهر له الخشونة، لأن ليس كل طير يؤكل لحمه.

إنَّ رَدَّ الجميل أمر مطلوب ولو بالكلمة الطيبة، لقول الرسول ﷺ: **«مَنْ صَنَعَ إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تقدروا فادْعُوا له بخير»**.

إننا نريد من شبابنا أن يتخلَّقوا بخُلق موسى، وعفَّة يوسف، وصدق محمد ونزاهته، وعفَّته وأمانته، وطهارة نفسه وجسده، وسموّ روحه، وصفاء قلبه.

(٧) أن المجتمع «كل أفراده» مطلوب منهم أن يقرأوا القرآن ويتدبَّروا في معانيه، وأن يستخلصوا منه العِبَر التي ترتقي بالمجتمع وتنهض به وتجعله في ازدهار وتقدُّم، لأن الحضارة هي الأخلاق أولاً، والأخلاق ثانياً، والأخلاق ثالثاً، وصدق الشاعر عندما قال:

وإذا أُصيب القومُ في أخلاقهم فَـأَقِـمْ عليهـم مـأتمـاً وعـويـلا

(٨) أن البث الإعلامي من سمائه المفتوحة وقنواته المتعددة وأساليبه المختلفة لا يمكنه أبداً أن يؤثر فيمن حَصَّن نفسه بالدين، وتمسك بالعقيدة، وتخلَّق بالأدب، وهذه الأمور هي التي تُعلِّمها الأم لأطفالها، لذلك يجب علينا أن نهتم بتربية البنات، وأن نُنشئهن تنشئة فاضلة بقيم عالية من أجل أن يقمن بتربية الأبناء، لأن المرأة الصالحة قادرة على صنع المستحيل، وصنع الأبطال إذا اشتدت الأزمة وتنكب الناس الطريق. هنا تبرز المرأة المتديِّنة الفاضلة ليكون من نتاجها من يعيد الحق إلى نصابه، ويقيم موازين العدل، ويهدي الناس إلى صراط مستقيم. لهذا كانت قصة ابنتي شعيب عبرة وعِظَة لكل أنثي من بنات حواء، وهي للشباب كذلك... فهل من مُدَّكر؟

مريم ابنة عمران

من سلالة طاهرة وأسرة شريفة ولدت مريم عليها السلام، وكانت أمها وهي حامل بها نَذَرَتْ أن الحمل الذي في بطنها سيكون مُحَرَّراً من أي عمل تكلفه به الأسرة، لأنه سيقوم على خدمة أهل بيت المقدس، فتقبَّل يا رب هذا النَّذْر. وكان في اعتقادها أنها ستلد ولداً، ولكن عندما ولدت جاءت بُنَيَّةً. ومن المعلوم أن البنت لا تقوم على خدمة المسجد، لأنه مكان اجتماع الرجال، فلا يليق بالمرأة أن تكنس وتمسح أمام الرجال، لذلك حزنت أمها وقالت وهي تدعو ربها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾[1]، وكأنها تطلب من الله العفو وأن يسامحها ويحللها من نَذْرِها حيث جاءت المولودة أنثى، ولا تستطيع أن تنهض بالرسالة المكلفة بها في خدمة المسجد. ثم تقول في تضرع وخشوع: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾[2].

أسلمت أمرها إلى الله، وأحسنت التسمية، وطلبت من الله القادر أن يحفظ الفتاة من أن يعبث بها الشيطان، والمقصود هنا شيطان الجن أو شيطان الإنس وشيطان الإنس أقوى، لأنه يصب في أُذُني الفتاة الكلام المعسول، ويحرك غرائزها بكلمات الغزل، ويضحك عليها بتوافه الأمور، حتى إذا قَضَى مأربه منها تركها تتجرّع كأس المرارة وتندب حظها العاثر الذي أوقعها في هذا الشَّرَك، وجعلها ألعوبة بين يدي الشباب الماجن، لذلك كانت زوجة عمران نبيهة ولبيبة، تُحسن التربية، وتُحسن التوجيه، وتحافظ على شرف ابنتها، لتسمو مكانتها، ويكون لها مكان الإعزاز والإكبار.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣٦.

ومع قيام زوجة عمران بالتربية وغرس القيم النبيلة في ابنتها، كانت كذلك قدوة لابنتها في لجوئها إلى الله تعالى ووقوفها بين يديه في صلاة خاشعة، وتبتُّل وتضرُّع، وهي تقول لربها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾. ولمَّا كانت زوجة عمران صادقة في كلامها، مؤمنة بما تقول، والذي يعلم حقيقتها هو الله، تقبَّلَها ربنا جل جلاله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[1]، وشاءت الأقدار أن يرحل عمران وزوجته من الدنيا، وتبقي مريم وحيدة وهي صغيرة، ونجد هنا العجب: الكل يريد أن يتكفَّل بمريم ويكفلها، لكن مشيئة الله تقتضي أن الذي يكفلها ويتكفَّل برعايتها هو زكريا عليه السلام، وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل، معروف بالعفَّة والنزاهة، ورعاية الأمانة، لذلك كفلها، فطلبت منه مريم أن يخصِّص لها مكاناً في بيت المقدس «المسجد»، حتى تتفرغ لعبادة الله، وحقق لها زكريّا رغبتها.

وبدأت مريم تتعلم ما يجب على المرأة أن تتعلمه، من طهارة ونظافة، وحسن خُلُق، وصدق مع النفس، وإخلاص لله في التبتُّل والعبودية. وقد استجاب الله لها كما استجاب لأمها من قبل، لأن الله كريم لا يرد يد مَنْ دعاه. أراد الحق سبحانه وتعالى أن يظهر على يدي مريم آية ليستمع إليها الناس الذين قست قلوبهم، وتحجَّرت عواطفهم، وتكالبوا على المال يجمعونه من حلال أو حرام. وكانت آية مريم أنَّ زكريا كلما دخل عليها بالطعام الذي يحمله من بيته يجد أمامها طعاماً ليس من طعام أهل البلد ولا من صناعة نساء أهل البلد، ولا تعرف أي امرأة أن تقوم بطهيه، لأنه طعام مصنوع بدقَّة، وله رائحة طيبة نفَّاذة تحرك الشهية لتتناوله. كما يجد مع الطعام فواكه متعددة الأصناف، بعضها ليس هذا أوان نضجه، وغير موجود بالمرة في الأسواق.

ويقف زكريا متعجباً ويقول لها: يا مريم، هل هناك أحد يدخل عليك غيري؟ فتقول: كلا ورب البيت! فيقول لها: إذاً مَنِ الذي جاءكِ بهذا الطعام؟ ومن أين لكِ

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٧.

هذه الأصناف؟ فتنظر إليه مريم وهي الواثقة من نفسها، المطمئنة إلى صدق قولها وتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[1] الذي أعبده وأتبتل إليه.. فعرف زكريا أن مكان مريم مكان طاهر، والأماكن الطاهرة يتقبل الله فيها الدعاء، وزكريا نبي، لذلك نجده يقف في مكان مريم ويرفع يديه إلى السماء بصدق وإخلاص ويسأل ربه أن يعطيه الذُّرِّيَّة وأن يمنحه الولد الذي يتشوق إليه، وقد حُرم منه طوال السنوات الماضية في أيام شبابه ورجولته، لذلك ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾[2].

يا لحلاوة الأمل الذي تحقق، والذي طال انتظاره بعد أن دعا الله في هذا المكان الطاهر، وبجوار الشخصية العظيمة، المتبتِّلة العابدة، الصوَّامة القوَّامة، الطاهرة المحصنة. يتقبل الله من زكريا ويتحقق الرجاء على الفور قبل أن ينتهي من صلاته: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾[3]. ومن هول المفاجأة حيث تحققت الإجابة بسرعة أُخِذَ زكريا، وكأنه لم يصدق الذي يناديه ويزفّ إليه البُشْرَى، فرفع يديه إلى ربه قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾[4]؟ وكأنه يُبيِّن شيئاً الله يعلم حقيقة أمره، لكن الله أجابه بقوله إنه يعلم ذلك، ولكن هناك القدرة الإلٰهية التي تفعل ما تشاء ولا سلطان لأحد عليها.

وما زال زكريا مأخوذاً بهول المفاجأة، ويريد أن يستوثق ويتأكد، فرفع يديه مرة أخرى إلى السماء وقال: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً﴾[5]، أي دليلاً واضحاً، وبرهاناً قويًّا على أنني سوف أنجب، وسيكون مني نسل، فكان الرد عليه: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾[6]، أي الدليل على ذلك أن صوتكَ سيُحبس، ولا

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٣٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية ٣٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية ٤٠.
(٥) سورة آل عمران، الآية ٤١.
(٦) سورة آل عمران، الآية ٤١.

تستطيع أن تكلِّم الناس إلاَّ بالإشارة، وفي هذه الفترة التي سيُحبس فيها صوتك عليك أن تقوم بواجب الشكر لله والثناء عليه، وعبادته بإخلاص وصدق، فقال الله له: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٤١﴾﴾[1].

أمَّا مريم التي أثني الله عليها لأنها أحصنت فرجها، وصَدَّقَتْ بكلمات ربها، وكانت من المواظبين على طاعته وعبادته، فإن الله بعث إليها بمَلَكٍ وهي جالسة وحدها، مستغرقة في عبادة ربها، عليها حجاب وسَتْر حتى لا يراها أحد، بينما هي في الخلوة إذ بالمَلَك يتمثل لها بشراً سويًّا، فَأُخِذَتْ، وانتابها فزع وهلع: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾[2] أي أتحصن بالله، وأطلب منه نجدة ليحميني منك، فهو القوي. لكن الملك ردَّ عليها بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾[3]. فتعجَّبت، وسِرُّ تعجُّبها أنها طاهرة عفيفة لم يمسسها بشر، حيث صانت نفسها وأحصنت فرجها، لذلك ردَّت عليه: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾[4]. وردَّ عليها المَلَك بقوله: إن الله هو الذي أراد ذلك ليكون ولدُكِ آيةً للناس، يحمل وحي الله إليهم، ويردهم إلى حظيرة القدس، ويوقظ الأحاسيس فيهم، وينمِّي فيهم المشاعر الطيبة، وكونكِ تحملين وتلدين من غير أن يمسسك بشر فهذا أمر بسيط للغاية، لأن الذي أراده هو الله، الذي يقول للشيء: كن فيكون، ثم هناك أمر محدد: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾[5].

وحملت مريم بعيسى عليه السلام بعد أن نفخ المَلَكُ في كمّ قميصها، وولدت عيسي الطاهر الزكي، وأصبحت مريم مضربَ الأمثال في الطهارة، ونموذجاً فريداً في العفَّة، ورائدة على طريق الخير لبنات جنسها، وصدق رسول

(١) سورة آل عمران، الآية ٤١.
(٢) سورة مريم، الآية ١٨.
(٣) سورة مريم، الآية ١٩.
(٤) سورة مريم، الآية ٢٠.
(٥) سورة مريم، الآية ٢١.

الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد: «**سيدة نساء أهل الجنة مريم، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية، ثم عائشة**».

لقد أصبحت السيدة مريم نموذجاً يحتذى ورائدة عظيمة على طريق الخير. لتكون قدوة لكل فتاة في الطهارة والعفة والتمسك بالقيم الأخلاقية النبيلة والأدب العالي فسلام عليها في الأولين والآخرين. . .

obeikandl.com

آمنة بنت وهب

هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب. ونسبها له شرف عالٍ، يشهد بذلك كل من أَرَّخَ لها، وقد أعطاها الله سبحانه من الجمال والكمال ما كانت تُدْعَى معه «حكيمة قومها»، ومن الفصاحة والبلاغة ما لم يسبقها إليه أحد من نساء العرب. تزوجها عبد اللَّه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب. وهنا يلتقي نسب آمنة بنت وهب بعبد اللَّه بن عبد المطلب. ثم يستمر النسب بعد كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خُزَيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مَعَد بن عدنان.

نسب عظيم، وقد اتفق النسَّابون ـ ولا خلاف بينهم أبداً ـ في هذه السلسلة العظيمة لهذين الأبوين الكريمين، وكان نتاج هذا الزواج العظيم ميلاد سيدنا محمد ﷺ، خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وقائد الغر المحجلين.. وكان هؤلاء الآباء العظام من الشهامة والشجاعة، والمروءة ونُبل الأخلاق، والجود والكرم، والأدب العالي هم مَضْرَب الأمثال في كل حي. وإذا ما تصورنا أن امرأة كانت تملك المال والجاه والثروة الواسعة تدعو عبد اللَّه هذا ـ وهو الشاب القوي ـ تدعوه ليكون معها في حجرة نومها، ويأخذ ما يشاء من مالها، فوقف في عزَّة وكبرياء وشموخ وقال لها: «أمَّا الحرام فالمماتُ دونه». وهنا ذهب عبد اللَّه إلى أبيه مسرعاً وقال له: يا أبتِ زوِّجني.

وجلس عبد المطلب زعيم مكة ورئيسها يستعرض العائلات التي تتَّسم بالكرم والشهامة والمروءة، فذُكر له وَهْب بن عبد مناف وأن له ابنة تُسمي آمنة، آية في الجمال والكمال والأدب، فقام عبد المطلب إلى وهب وخطب ابنته إلى ولده. وبعد الزواج دخل عبد اللَّه على آمنة، وبعد أن قضي أيام عرسه خرج إلى شوارع

مكة ومَرَّ على المرأة التي عرضت عليه المال والثروة نظير اللقاء، فنظرت إليه ثم قالت: هل تزوجت؟ قال: نعم، قالت: بِمَنْ؟ قال: بآمنة بنت وهب، قالت: نِعْمَ الفتاة، لقد ذهبت بعز الدنيا وفلاح الآخرة!!

ويذكر كُتَّاب السِّيَر أن المرأة التي دعته إلى نفسها رأت نورَ النبوة في وجهه، وبعد الزواج لم تجده، وكانت هذه المرأة تتمني أن تكون هي زوجة عبد اللَّه، وكانت من أجمل نساء أهل زمانها وأعفَّهن ، إلا أنها قد كانت قرأت في الكتب السابقة أن نبيًّا آن أوانه، وأنها رجت أن تكون أُمَّهُ لما قرأته من أن أباه يُسمي بعبد اللَّه، ثم إنها رأت النور بعينيها بين عينيه، وبعد أن دخل على آمنة ذهب النور منه وانتقل إليها.

وتزوج عبد اللَّه بآمنة، وعاش معها قرابة شهر وهما من أسعد الناس، ثم خرج عبد اللَّه في قافلة للتجارة، ومات وهو راجع بالأبواء مكان قرب يثرب. وعاشت آمنة على ذكري الأيام الحلوة الجميلة التي عاشتها في سعادة وهناء مع زوج وفِيٍّ بارٍّ كريم. وشعرت بالحَمْل، وحَدَّثَ بعض المؤرخين أنها رأت في المنام أنها أتاها آتٍ وقال لها: إنكِ حملت بسيد هذه الأمّة، فإذا وقع إلى الأض فقولي: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد ثم سمِّيه «محمداً». كما رأت أن نوراً خرج منها رأت به قصور بصري في الشام. كما أن جده عبد المطلب ـ وكان حيًّا ـ رأي بعد موت ولده عبد اللَّه رؤيا: «أن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الأرض، وطرف في المشرق وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة، على ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها». فقصَّها عبد المطلب على من فسَّرها له بأن مولوداً من صُلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض. لذلك لما وُلِد النبي العظيم سمَّاه جده محمداً، ولما سُئل عبد المطلب: لم سميت حفيدك محمداً وتركت أسماء أجدادك وآبائك؟ أي: لِمَ لَمْ تُسم عبد الدار، أو عبد مناف، أو عبد شمس؟ فرد عبد المطلب قائلاً: سميتُه محمداً رجاءَ أن يُحْمَد في الأرض وفي السماء.

وقد وُلِدَ النبي محمد يتيماً حتى لا يتعلق بأبيه، كما ماتت أمه وهو ابن ست

سنوات، وتركته فقيراً لا مالَ له ولا ثروة، وإنما تركت له رصيداً من الخير الذي قدمته إلى الناس، ومن المساعدة التي كانت تساعد بها الغير، وهذا ميراثٌ لو تعلمون عظيم، لأن الشرف والسمعة الطيبة أعظم في دنيا الناس وأحسن من ملايين الملايين من الجنيهات مع السمعة السيئة.

وانتقل محمدٌ اليتيم إلى رعاية جده، الذي مات هو الآخر وعمر محمد ثماني سنوات، وكَفَله عمُّه أبو طالب. ومع أن محمداً عاش مع أمه سنوات قليلة فإن صورتها لم تفارق خياله حتى بعد أن نزلت عليه الرسالة. وهذا شأن الإنسان الأصيل، لذلك كان إذا مرَّ بالمكان الذي ماتت فيه أمه يذهب لزيارة قبرها. في الحديث الصحيح: أنه زارَ قبرَ أُمِّه بالأبواء «فبَكَى وأبْكَى» ثم قال: **«استأذنتُ ربِّي في زيارة قبر أمي فأَذِنَ لي، واستأذنته أن أستغفر لها فلم يأذن لي»**.

وجاء في كتاب «المنهل العذب المورود، شَرْح سُنن الإمام أبي داود» للإمام الجليل المحقق «محمود خطاب السبكي»[1]: «عن أبي هريرة قال: أتي رسول الله ﷺ قبر أمه فبكي وأبكي مَنْ حَوْلَهُ، فقال رسول الله ﷺ: **«استأذنتُ ربي تعالى على أن أستغفر لها فلم يأذن لي.. فاستأذنت أن أزور قبرها فأَذِن لي، فزوروا القبورَ فإنها تُذَكِّرُ بالموت»**. وجاء في الشرح ما ملخصه: إنه لم يُؤْذَن له ﷺ في الاستغفار لأنه فرع المؤاخذة على الذنب، ومن لم تبلغه الدعوة لا يُؤَاخَذُ على ذنبه، فلا حاجة إلى الاستغفار لها.

ويقول أيضاً في الشرح: إن الرسول ﷺ قال: **«إن الله اصطفي من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفي من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفي من بني كنانة قريشاً، واصطفي من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**.. ومعنى هذا أن الرسول ﷺ خير الناس وأشرفهم.

كما رَوَي أبو نعيم في «دلائل النبوة» ـ بسند ضعيف ـ أن أسماء بنت رهم رَوَتْ عن أمها أنها قالت: شهدت آمنةَ أُمَّ النبي ﷺ في علَّتها التي ماتت فيها

(١) الجزء التاسع، ص ٩٣، باب: فى زيارة القبور.

ومحمد عليه الصلاة والسلام غلام يفع، «أي مرتفع»، له خمس سنين عند رأسها، فنظرتْ أُمُّه إلى وجهه ثم قالت:

بـــارَكَ فيــك الله مِــنْ غُــلامِ ... يا ابْنَ الذي من حومة الحِمامِ
يخــابعــون الملــك العــلاَّمِ ... فُودِي غَـداةَ الضَّرْب بـالسِّهامِ
بمــائــة مــن إبــلٍ ســوامِ ... إنْ صح ما أبصرتُ في المنامِ
فـأنـت مبعـوثٌ إلـى الأنـامِ ... تُبعث في الحلِّ وفي الحرامِ
تُبعث في التحقيقِ والإسلامِ ... ديـن أبيـكَ البَـرِّ إبـراهـامِ
فـالله أنهـاكَ عـن الأصنـامِ ... ألاَّ تـواليهـا مـع الأقـوامِ

ثم قالت: «كل حي ميت، وكل جديد بالٍ، وكل كبير يَفْنى، وأنا ميتة، وذكري باقٍ، وقد تركتُ خيراً، وولدتُ طهراً». وقال الزرقاني في شرح المواهب ـ نقلاً عن الجلال السيوطي ـ بعد ذكر هذه الأبيات: وهذا القول منها صريح في أنها مُوَحِّدَة، إذْ ذكرت دينَ إبراهيم، وبَعْثَ ابنها ﷺ بالإسلام من عند الله، ونهيه عن الأصنام وموالاتها، وهل التوحيد شيء غير هذا؟ فإن التوحيد هو الاعتراف بالله وأُلوهيته، وأنه لا شريك له، والبراءة من عبادة الأصنام ونحوها، وهذا القدر كافٍ في التبرِّي من الكفر وثبوت صفة التوحيد في الجاهلية قبل البعثة. ثم يقول الشيخ خطاب بعد كلام طويل عن الكُهَّان وما رَدَّدُوه عن زمان قرب النبي، وما ذكروا من صفاته، «ثم هي» أي أُمُّه ﷺ سمعت من ذلك وشاهدت في حَمْله وولادته من آياته الباهرة، فرأت النور الذي خرج منها أضاء بها قصور الشام حتى رأتها، ورأت البيت الذي هي فيه وقد امتلأ نوراً، والنجوم تدنو حتى كأنها ستقع، ثم هي لم تجد حين حملت به ما تجده الحوامل من ثقل أو وحم، وأنها ولدته مختوناً، مقطوع السّرة، وعندما نزل إلى الأرض كانت أصابع يديه مقبوضة، مشيراً بالسبابة كالمُسَبِّح، ثم قالت لحليمة رضي الله عنها حين جاءت به بعد حادث شق صدره: «أخشيت عليه الشيطان؟ كلا، والله ما للشيطان عليه من سبيل، وأنه لكائن لابني هذا شأن».

وجاء في حديثٍ، أن النبي ﷺ قال: «**ما سألتهما**» ـ أي أبي وأمي ـ «ربي

فيعطيني فيهما، وإني لقائم يومئذ المقام المحمود». قال السيوطي في شرحه: «هذا الحديث يُشْعِرُ بأنه يرتجي لهما الخير عند قيامه المقام المحمود، بأن يشفع لهما فيوفقا للطاعة إذا امْتُحنا حينئذٍ، كما يُمتحن أهل الفترة...». وقال الحافظ ابن حجر: «الظن بآبائه ﷺ كلهم الذين ماتوا في الفترة أن يطيعوا عند الامتحان، لتقرَّ بهم عينه ﷺ».

ولقد جاء النصُّ صريحاً في أن أهل الفترة الذين لم تبلغهم الرسالة ناجون، لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[1].

ويقول الشيخ محمود خطَّاب: «وقد ورد ما هو صريح في إيمان أبويه ﷺ، واعترافهما بدين إبراهيم وبعثة النبي ﷺ، وهذا هو الإيمان بعينه، لأن أباه عاش طول حياته يلتزم بالكمال النفسي والطهارة، وقد افتتن به النساء ولم يَنَلْنَ منه شيئاً. أمَّا أُمه فرأت ما رأت، ولا شك أن ذلك جعلها من أهل الخير». كما جاء في كتاب الروض الآنق[2]: «روي من حديث غريب لعله أن يصح وجده بخط جدي أبي عمران أحمد بن أبي الحسن الثاني رحمه الله تعالى بسند فيه مجهولون، ذكر أنه نقله من كتاب انتسخ من كتاب معوز بن داود بن معوز الزاهد يرفعه إلى ابن أبي الزناد، عن عروة عن عائشة رضي الله عنها. أَخْبَرَتْ أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يُحيي أبويه، فأحياهما له، وآمنا به، ثم أماتهما، والله قادر على كل شيء. وليس تعجز رحمته وقدرته عن شيء، ونبيِّه عليه السلام أهلٌ أن يخصه بما شاء من فضله، ويُنعم عليه بما شاء من كرامته، صلوات الله عليه وآله وسلم».

وقال القرطبي في تذكرته: جزم أبو بكر الخطيب في كتاب «السابق واللاحق» وأبو حفص عمر بن شاهين في كتاب «الناسخ والمنسوخ» له في الحديث بإسناديهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: «حج بنا رسول الله ﷺ حجة الوداع فمرَّ على قبر أمه وهو باكٍ حزين مغتمّ فبكيتُ لبكائه ﷺ، ثم إنه نزل فقال: **«يا حُميراء استمسكي»**. فأسندت إلى حيث البعير.. فمكث عني طويلاً مليًّا، ثم إنه عاد إليَّ

---

(١) سورة الإسراء، الآية ١٥.

(٢) الجزء الأول، ص ١٩٤، بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد.

وهو فَرِحٌ مبتسم. فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، نزلْتَ من عندي وأنت باكٍ حزين مُغتمّ، فبكيتُ لبكائك، ثم عُدْتَ إليَّ وأنت فَرِحٌ مبتسم، فَمِمَّ ذا يا رسول الله؟ قال: «**ذهبتُ لقبر آمنة أُمِّي، فسألتُ الله أن يحييها، فأحياها، فآمنت بي**». . أو قال: «**فآمنت، وردَّها الله عز وجل**».

وجاء بنفس الكتاب والصفحة: «وليس لنا أن نقول نحن في أحد أبوي النبي ﷺ أنه في النار، لأن ذلك يؤذي النبي ﷺ، وهو القائل: «**لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات**»، والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[1].

وفي هذا الموضوع جاء في كتاب «المنهل العذب» أيضاً[2]: «الظن بآباء النبي ﷺ أن يكونوا من أهل الفترة الذين لم يغيروا ولم يبدلوا. وعلى الجملة فالأولى ما ذكره بعض المحققين من أنه لا ينبغي ذكر هذه المسألة إلاّ مع مزيد الأدب، وليست من المسائل التي يضر جهلها، ويُسْأَلُ عنها في القبر أو في الموقف، فحفظ اللسان عن التكلم فيها ـ إلاّ بخير ـ أَوْلي وأسلم».

وقال الحلواني في «المواكب»: «القول بكفر أبويه ﷺ ذَلَّة عاقل، نعوذ بالله من ذلك، فمن تفوَّه به فقد تعرض للكفر بإيذائه ﷺ. فقد جاء أن عكرمة بن أبي جهل اشتكي إلى النبي ﷺ أن الناس يسبون أباه، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات**»[3].

ولا شك أنه ﷺ حيٌّ في قبره تُعرض عليه أعمالنا. . وإذا روعي عكرمة رضي الله عنه في أبيه بالنهي عمَّا يتأذّي به من سبِّه فسيّد الخلق أَوْلَي وأوجب. كيف وقد جاء أنَّ بنت أبي لهب جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن الناس يصيحون بي يقولون: إنِّي ابنة حَطَب النار. . فقام رسول الله ﷺ وهو مُغْضَبٌ شديد الغضب فقال: «**ما بالُ أقوامٍ يُؤذونني في نسبي وذَوِي رحمي، ألا وَمَنْ آذَي نسبي وذوي**

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٧.
(٢) للإمام محمود خطاب السبكى، ص ١٠٠.
(٣) رواه الطبرانى.

رحمي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذَى الله عز وجل».

وقد سُئِلَ الإمام أبو بكر بن العربي المالكي عن رجل قال إن أباه ﷺ في النار.. فأجاب: بأنه ملعون وذلك لآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[1]، ولا أَذَى أعظم من أن يُقال إن أباه في النار». ولذا غضب عمر بن عبد العزيز غضباً شديداً على كاتب له قالَ ذلك، وهو يسمعه، وعزله من دواوينه كلها ـ كما ذكره أبو نعيم في الحلية ـ ومما يؤيد ذلك قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في آية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾[2]: مِنْ رِضا محمد ﷺ ألاَّ يدخل أحد من أهل بيته النار[3]. وخبر: «**سألتُ ربي ألاَّ يُدْخِلَ النارَ أحداً من أهل بيتي فأعطاني ذلك**»[4]. بل لو وَرَدَ دون ما قدمناه لكان فيه مقنع لمن مُنِح أدنى توفيق، فيجب اعتقاد ذلك.

وقال العلاَّمة السحيمي في شرحه على عبد السلام: «إنه يجب اعتقاد أن جميع آباء الأنبياء وأمهاتهم مؤمنون، وأنهم في الجنة مخلدون. وهذا هو الذي نعتقده ونلقي الله إنْ شاء الله تعالى عليه، والحمد لله رب العالمين». ثم يقول الشيخ خطاب: «ودَلَّ الحديث على مشروعية زيارة القبور، ولو كانوا من أهل الفترة، ولا سيما الأقارب، لما فيه من صلة الرحم والاعتبار، وعلي جواز البكاء حال الزيارة بلا صوت ولا نَوْح. ودَلَّ على مزيد شفقته ﷺ على والديه، وقيامه بحقوقهما حق القيام، والحديث أخرجه أحمد ومسلم والنسائي»[5].

هذه هي آمنة أُمَّ النبي العظيم، ولعل في القرآن ما أشار إليها حسبما جاء في الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾[6]. نقدمها لبنات جنسها، إنسانة نشأت في الجاهلية، ومع ذلك صانت نفسها وحَصَّنَتْ فرجها، ولم

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٧.
(٢) سورة الضحى، الآية ٥.
(٣) أخرجه ابن جرير.
(٤) أخرجه ابن سعد.
(٥) «المنهل العذب المورود» للشيخ محمود خطَّاب ـ بتصرف.
(٦) سورة الشعراء، الآيتان ٢١٨ ـ ٢١٩.

تعبث، برغم أن العبث كان أمراً شائعاً. لكن الإنسانة العاقلة اللبيبة هي التي تعرف قدر نفسها وتحافظ على شرف أهلها وتعيش بالأدب مع الناس، والطهر الكامل، ولا تسمح لأحد ـ مهما كان ـ أن يمس شعرة سقطت من رأسها على الأرض، فما بالك برأسها وجسدها، علماً بأن الطهارة جزء لا يتجزأ. والإنسانة العاقلة هي التي تتخذ المرأة الكاملة قدوة لها، وهذه آمنة الشرف كله، لأنه لم يسبقها أحد من نساء العرب في الجمال الظاهري الذي صانته وحافظت عليه، والسمو الروحي الذي ترجمته إلى عمل في رعاية الأيتام ومساعدة المحتاجين، ناهيك بالكمال العقلي، والنضج المبكر، والذكاء المفرط، وكل ذلك نتج من الطهارة الجسدية والنفسية.

إن آمنة برغم هذا كله لم تتزوج بعد عبد اللَّه برغم أنه مكث معها شهراً فقط، لكنها رأت في المولود ما يعوِّضها عن الزوج، فاهتمت به وأكرمته، وجعلت مكانه في قلبها. كانت تلحظه وتهتم بشؤونه، وتعلمه وترشده وهذا هو دور الأم، لأنها لو تزوجت فإنّ زوجها ربما يقسو على ولدها الذي قد يهرب من البيت فيتلقفه الشارع، وما أدراك ما الشارع؟ إنه الضياع بسبب استهتار الأم ولجوئها إلى زوج آخر يرهق جسدها، ويمتص خيرها، لهذا كانت آمنة من النوع الفريد العظيم الذي يجب أن نتخذه قدوة، خاصة لبنات حواء، وبمثل هذا فليقتدِ المقتدون.

يا آمنة، طيَّب الله ثراك، فأنت خيرُ مَنْ حملتْ بخيرٍ، وعاشرت خيراً، وأنجبت خيراً، فجزاك الله خيراً. ودعاؤنا إلى الله أن يلحقك بالصالحين، فأنتِ منهم ولهم قدوة. وهذا ليس بعزيز على الله، فهو سبحانه ذو الفضل العظيم. وصدق من قال:

أَظْـآرُه أسْلَمْـتَ مـن بـركـاتـه وحَوَي فخاراً محتسٍ فضلاته

كيف الأُصول الحاملات لِذاتِهِ أفـلا يَنَلْـنَ بجـاهـه التكـريمـا

صَلُّوا عليه وسَلِّموا تسليما